الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
Arab Private Schools Federation

بين الرّان والصّقل

التعليم الإسلاميّ كمنهج لتطهير قلوب منّاعي الخير

د. خميس بن عبيد العجمي
رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان

360 KNO SMART SCHOOLING
ADVANCE THROUGH TECHNOLOGY
unicef
United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization
GenEx
Generational Education Exchange
تمكين TAMKEEN
UNIVERSITY OF VICTORIA LONDON - UK
AMIEF
American International Education Federation

في كتاب اللّٰه العزيز، تتجلّى حكمة بالغة في وصف الطبائع البشرية وتصنيف السلوكيّات الإنسانية، وبين خفايا هذه الأوصاف التي تحمل دلالات عميقة، يأتي وصف "منّاع للخير" كصفة ذميمة تُحذّر من خطورة من يمنع الخير عن الناس ويقف حائلاً دون انتشار البرّ والإحسان، فيصفه اللّٰه تعالى في محكم كتابه العزيز في سورة القلم بقوله: "منّاع للخير معتد أثيم" في وصف يكشف عن شخصية تجمع بين منع الخير والعدوان والإثم.

وفي عصرنا الحاضر، عندما تتعقّد التحدّيات الأخلاقيّة وتتنوّع صور منع الخير، يبرز دور التّعليم والقيم الأخلاقية كركائز أساسية في بناء شخصيّة الطلبة المتوازنة التي تسعى للخير وتدفع الشر، وتكون عوناً للناس لا عقبة في طريقهم، فكيف يمكن للمنظومة التربوية من مواجهة هذه الظاهرة السلبية وتعزيز القيم الأخلاقية النبيلة؟

ففي وصف "منّاع للخير" تعبير قرآني يحمل في طيّاته معانٍ عميقة تتجاوز المعنى الظاهري، فالمنّاع هو الذي يمنع ويحول دون وصول الخير للناس، سواء أكان ذلك بالقول أو الفعل أو التأثير على الآخرين، وهذا المنع قد يأخذ صوراً متعددة في حياتنا المعاصرة.

فقد يكون المنّاع للخير هو الذي يمنع الصدقة عن المحتاجين، أو يثني الناس عن أعمال البر والإحسان، وقد يكون هو الذي يقف حائلاً دون نشر العلم النّافع أو يحارب المشاريع الخيرية والإصلاحية، وقد يكون من يستخدم نفوذه أو سلطته لمنع وصول الخدمات للمستحقين أو يعرقل المبادرات التنموية والإنسانية.

ويتجلّى المعنى الأعمق لهذا الوصف في الكشف عن طبيعة نفسية غير سويّة تجد لذّتها في منع الآخرين من الخير، والسّعي لإفساد المجتمع وتعطيل مسيرة التقدّم والإصلاح، فهي نفسية تتناقض مع الفطرة السليمة التي تميل للخير وتفرح لسعادة الآخرين.

وفي عالمنا المعاصر، تتّخذ ظاهرة منع الخير أشكالاً جديدة ومعقّدة تواكب تطوّر المجتمعات وتعقّد العلاقات الإنسانية، فعلى المستوى الاقتصادي، نجد من يحتكر الثروات ويمنع تداولها العادل، أو من يستغل الحاجات الأساسية للناس لتحقيق مكاسب شخصية على حساب المصلحة العامة

وفي المجال التّعليميّ، قد نواجه من يحتكر المعرفة أو يمنع انتشار التعليم الجيد، أو يروّج للأفكار الهدّامة والمتطرّفة التي تعرقل التقدّم العلميّ والحضاريّ وتثير المخاوف الأمنية، وفي المجال الاجتماعي، نجد من يبثّ الفرقة بين الناس ويمنع التضامن والتكافل الاجتماعي، وعلى المستوى الفردي، قد يتجلّى المنّاع للخير في الأب أو الزوج أو الصديق الذي يثني الآخرين عن أعمال البر والإحسان، وينشر السلبية ويحبط الآخرين عن القيام بالمبادرات الإيجابية.

ولفهم ظاهرة المنّاع للخير فهماً عميقاً، فقد وجب الغوص في جذورها النفسية والاجتماعية؛

فمن الناحية النفسية، قد ينشأ هذا السلوك من مشاعر الحسد والغيرة، والخوف من تفوق الآخرين أو نجاحهم، أو نتيجة لتراكم الإحباطات والفشل الشخصي، ممّا يدفع الإنسان لمنع الآخرين من تحقيق ما عجز هو عن تحقيقه، وقد يكون السبب النرجسية المفرطة وحب الذات بشكل مبالغ فيه، فيرى المنّاع للخير نفسه مركز الكون، ولا يحتمل أنْ يحصل غيره على الخير أو الاهتمام، كما أنّ ضعف الثقة بالنفس قد يدفع البعض لمنع الآخرين من التقدّم خوفاً من أنْ يكشف ذلك عن عجزهم أو قصورهم.

ومن الناحية الاجتماعية، قد تساهم البيئة التنافسية غير الصحية في نشوء هذا السلوك، عندما يعدّ النجاح لعبة صفرية" فنجاح الآخرين يعني فشلي الشخصي"، كما أنّ غياب القيم الأخلاقية والتربية الروحية يخلق فراغاً تملؤه النزعات الأنانية والسلبية، فضلاً عن أنّ التجارب المؤلمة في الطفولة كالحرمان أو الظلم، قد تترك أثراً عميقاً يدفع الإنسان لاحقاً لمنع الآخرين من الحصول على ما حُرم منه، بالإضافة إلى تأثير القدوات السلبية في المجتمع والإعلام الذي قد يمجّد السلوكيّات الأنانيّة ويصوّرها كذكاء أو قوة.

وهنا يأتي دور التعليم الجيّد المستدام، الذي يجمع بين العلم والحكمة، بين المعرفة والأخلاق، فيشكّل الدرع الواقي ضد انتشار صفة المنّاع للخير في المجتمع، فالتعليم الأصيل يبني الشخصية المتوازنة التي تجد سعادتها في سعادة الآخرين، وتسعى للإسهام في بناء المجتمع وتقدّمه، فمن خلال التعليم، يتعلّم الإنسان أنّ الخير ليس كميّة محدودة تنقص بالمشاركة، بل هو نور يزداد كلما انتشر، فيتعلّم أنّ مساعدة الآخرين والإسهام في نجاحهم لا ينقص من قدره، بل يزيده رفعة ومكانة عند اللّٰه والناس.

فالتعليم الجيّد يغرس في النفوس مفهوم الأمانة والمسؤولية الاجتماعية، فكلّ إنسان مسؤول عن رعيته، وهذا الشعور بالمسؤولية يدفع المتعلّم لأن يكون عوناً للآخرين، لا عقبة في طريقهم، ويعلّم الأفراد بأنّ الرزق بيد اللّٰه، وأنّ مساعدة الآخرين لا تنقص من الرزق، بل قد تكون سبباً في زيادته وبركته، وهذا الإيمان يحرّر الإنسان من الخوف والقلق اللذين قد يدفعانه لمنع الخير عن الآخرين.

كما أنّ هنالك في محيطنا العربيّ عدداً من التجارب والحالات الإنسانيّة التي نستطيع أن نستشفّ منها قيام البعض بدعم ومؤازرة منافسين لهم في مجال عملهم، وذلك من منطلق كون الصورة الأعمق والأجمل أنْ يكون هناك من يقدّم الدعم من منطلق محبة الخير للآخرين كما يحبّونه لأنفسهم، فكما قال الرسول صلى اللّٰه عليه وسلم: " لا يؤمن أحدكم حتّى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه "رواه البخاريّ ومسلم، فالصورة لا ينبغي أنْ تكون دوماً قاتمة.

ولمواجهة ظاهرة المنّاع للخير، فإنّ هناك عدداً من الإستراتيجيات التربوية المتدرجة التي تبدأ من الطفولة المبكرة وتستمر مدى الحياة، ويمكن تفعيلها بشكل متكامل وشموليّ، ومنها؛ التربية بالقدوة، إذ يرى الطفل والطالب نماذج إيجابية من المعلمين والمربين والوالدين تسعى للخير وتشجع الآخرين عليه، والتربية على قيم المشاركة والتعاون منذ الصغر، ممّا يساهم في بناء شخصية سوية تجد متعتها في العطاء والمشاركة، وتعليم التفكير النقدي والتحليلي الذي يساعد على فهم عواقب السلوكيات السلبية وأثرها في المجتمع، وبرامج التطوع والخدمة المجتمعية التي تلعب دوراً مهماً في تربية الشباب على حب الخير والسعي إليه، فعندما يشارك الطلبة في أعمال البر والإحسان، يكتشفون بأنّ السعادة الحقيقية تأتي من مساعدة الآخرين، ممّا يجعلهم يرفضون أيّ سلوك يمنع هذا الخير.

كما أنّ للمناهج الدّراسيّة دور حيويّ في تشكيل عقول الناشئة وتوجيه سلوكهم، ولذلك، فقد وجب أنْ تتضمّن هذه المناهج قصصاً وأمثلة من التاريخ الإسلامي والمعاصر ، تعمل على إبراز نماذج إيجابية لأشخاص كانوا سبباً في انتشار الخير وتيسيره على الناس، فتدريس السيرة النبوية بطريقة تطبيقية يساعد الطلبة في فهم كيف كان النبي صلى اللّٰه عليه وسلم مفتاحاً للخير، وكيف كان يشجع الناس على أعمال البر ويسهل عليهم سبل الخير، ولم يكن يوماً عقبة في طريق أحد نحو الصلاح والإصلاح.

ومن جهة أخرى فالمواد العلمية يمكن أن تُدرّس بطريقة تبرز كيف أنّ الاكتشافات والاختراعات العلمية كانت نتيجة للتعاون بين العلماء ومشاركة المعرفة، وليس احتكارها، وهذا يغرس في نفوس الطلبة قيمة المشاركة في المعرفة والسعي لنفع الإنسانية.

فضلاً عن أنّ مواد الحفظ كمادة التربية الإسلامية، من الممكن تعليمها بحيث يتمّ التركيز على الجانب العملي والتطبيقي للقيم الإنسانيّة فيها، لا التلقين والتكرار، فيتمّ تعليم الطلبة كيفيّة تطبيق مبادئ العدالة والرحمة والتكافل في حياتهم اليومية بشكل أعمق من أنْ يتمّ توجيههم لحفظ النصوص دون فهم أو تطبيق.

إلى جانب أنّ البيئة التعليمية لها تأثير كبير في تشكيل السلوك والقيم، فالمدرسة التي تسود فيها روح التنافس الإيجابي والتعاون تنتج طلبة إيجابيين، بينما البيئة التي يسودها التنافس المدمر والأنانية تنتج شخصيات سلبية قد تميل لمنع الخير عن الآخرين، كما أنّ إنشاء نوادي الخدمة المجتمعية والعمل التطوعي في المدارس والجامعات يوفر منصة عملية للطلبة لممارسة أعمال الخير والإحسان، وهذه الأنشطة لا تعلّم الطلبةكيفيّة مساعدة الآخرين وحسب، بل تشعرهم بالرضا والسعادة التي تأتي من العطاء.

كما أنّ نظام التقييم في المؤسسات التعليمية يجب أنْ يخصّص في جزء منه تقييم السّلوك الأخلاقي والمشاركة في الأنشطة الإيجابية، لا الدرجات الأكاديمية وحسب، فعندما يرى الطلبة بأنّ أعمال الخير تُقدّر وتُثاب، فإنّهم سيسعون إلى القيام بها ونشر ثقافة العمل بها.

ناهيك عن كون تدريب المعلّمين والمربّين على كيفية اكتشاف السلوكيات السلبية والتعامل معها بحكمة، أمر ضروري وحيويّ، فالمعلّم الماهر يستطيع أنْ يحوّل الطالب من شخصيّة سلبيّة تمنع الخير إلى شخصية إيجابيّة تسعى إليه وتشجع الآخرين عليه.

ولا ننسى دور الأسرة لكونها المدرسة الأولى في حياة الإنسان، فهي التي تضع الأسس الأولى لشخصيته وقيمه، فالطفل الذي ينشأ في بيئة أسرية تقدّر العطاء والمشاركة وتشجع على أعمال الخير، سيكبر وهو يحمل هذه القيم في قلبه وسلوكه، فالقدوة الأسرية لها تأثير عميق على الطفل الذي سيتعلّم سلوك العطاء بطريقة طبيعية وتلقائية.

وفي عصر التكنولوجيا، يمكن الاستفادة من التقنيات الحديثة في تعزيز القيم الأخلاقية ومحاربة السلوكيات السلبية، فالألعاب التعليمية التفاعلية يمكن أن تعلّم الأطفال قيم التعاون والمشاركة بطريقة ممتعة وجذابة، وأنْ تتضمن مسابقات خاصة بالتربية الأخلاقية والقيم الإسلامية، تكون متاحة للجميع وبصورة مجانية، وحتّى وسائل التواصل الاجتماعي، رغم مخاطرها، يمكن أنْ تكون أداة فعالة لنشر القيم الإيجابية والتشجيع على أعمال الخير، من خلال حملات التوعية الرقمية والمحتوى الهادف الذي يمكن أنْ يصل إلى ملايين الأشخاص ويؤثّر في سلوكهم إيجابياً، وحتّى التطبيقات الذكية التي تشجع على العمل التطوعي والمشاركة في الأعمال الخيرية تجعل من السهل على الناس العثور على فرص للمساهمة في خدمة مجتمعهم.

وعلى الرغم من أهمية الموضوع وضرورة العمل عليه، إلا أنّ هناك تحدّيات وعقبات حقيقية تواجه جهود مكافحة ظاهرة المنّاع للخير، ومنها التأثير السلبي لوسائل الإعلام التي قد تروّج لقيم الأنانية والمادية على حساب القيم الروحية والأخلاقية، والضغوط الاقتصادية والاجتماعية التي يواجهها الناس في حياتهم اليومية التي قد تدفعهم للتركيز على مصالحهم الشخصية وتجاهل احتياجات الآخرين، وضعف الموارد المالية والبشرية المخصصة للبرامج التربوية والتوعوية يحدّ من فعالية هذه البرامج، ومقاومة التغيير من بعض الأفراد والمؤسسات الذين قد يستفيدون من الوضع الراهن تشكل عقبة أخرى.

فإنّ مثل هذه التحدّيات وغيرها الكثير، يقف حجر عثرة أمام جهود حثيثة لبناء مجتمع يسود فيه الخير والعطاء، مجتمع يكون فيه كلّ فرد عوناً لأخيه وسنداً له لا ماديّاً وحسب - بل قد يكون سنداً معنوياً بكلمة تجبر خاطره في وقت أسى- مجتمع يحتفي بالنجاح المشترك ويعتبر نجاح الآخرين مصدر فرح وغبطة لا حسد وتباغض.

وختاماً،

فإنّ مواجهة ظاهرة "المنّاع للخير" ليست مجرد مسؤولية فردية أو مؤسسيّة، بل هي مسؤوليّة جماعيّة تتطلّب تضافر جهود أفراد المجتمع بأكملهم، والتّعليم بمفهومه الشامل - الذي يشمل التربية والتهذيب إلى جانب التلقين والتحصيل - هو السلاح الأقوى في هذه المعركة ضد السلوكيّات السلبية، فبالعلم النافع والتربية الصالحة، نستطيع أنْ نبني أجيالاً تكون مفاتيح للخير مغاليق للشر، كما وصف النبي صلى اللّٰه عليه وسلم الصالحين من أمته.

ونحن نعلم بأنّ الطريق قد يكون طويلاً والتحديات كبيرة، إلاّ أنّ الهدف نبيل والرسالة واضحة، فلنجعل من كلّ يوم فرصة لغرس قيمة إيجابية في نفوس من حولنا، ولنكن قدوة في العطاء والبذل والإيثار، فما أحوج عالمنا اليوم إلى من يفتح أبواب الخير ويسهل سبله، عوض إغلاقها وعرقلة مسيرتها، فإنّ اللّٰه سبحانه وتعالى قد وعد الذين يعملون الصالحات ويسعون في الأرض بالإصلاح والخير، بالجزاء الحسن في الدنيا والآخرة.

ومن هنا فقد وجب التذكير بنعم اللّٰه وأنّ العطاء لا ينقص المال، ف"مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ" ليست مجرد صفة مذمومة، بل هي انعكاس لقسوة القلب وضعف الإيمان، فليحرص المسلم على أنْ يكون مُعطياً لا مانعاً.